معبد بوذا

قصة بقلم مطاع صفدي

ادرك انني وحيد . وحركة يدي هذه عندما ترتفع بالسيجارة من المنفضة الى شفتي ، لتبقى هناك لحظة ، تملأ صدري بغمامة زرقاء حارة ... هذه الحركة الرتيبة بين المنضدة الخشبية الشقراء والشفاه اللزجة الحمراء، نواس بارد يسجل لحظات الزمان الاجوف . الزمان كما يمتصه انتظار شاخص من فراغه الى هذا الملاء المضج . من بين أصابعي الطويلة النحيلة المخيفة لانها تستطيع الحركة بشكل عجيب، حركة على خيوط متوترة، على أوتار ، فيثر كذلك لحن اللهفة الضائعة ، ولا يسمعه أحد ..ملاء أطل عليه ، وهو جملة من الرؤوس والعيون الزجاجية والايدي المتأرجحة او الاقدام المسرعة دائماً ، وعواصف الحر الصامت ، المتخثر ، يدب عرقاً بحرياً دبقاً على هذه الصلعات ، على جبين منفض . وآخر مسطح ساذج ، وآخر شاب مصمم مهووس . عرق على الجبين ، بين النهود ، في قبضات الايدي الحاملة للاشياء ، أشياء تتناقل بين الناس والعربات والمخازن كانها دم المدينة ، وقد صار كتلا ، علباً لها أبعاد هندسية..تهتز أراجيح في الايدي التعبة ، وآمالاً في القلوب ، ومشاريع للقرن العشرين في الحياة بين الجحافل ، الكتل ، الاكوام من الحجارة والناس والخشب والملح والحديد والدخان..

موج الشارع هذا تكثفه نظرتي على مسافة مني . انني فوقه ، هنا على سقيفة حشرت فيها مع عشرات الناس الذين يمشون ويأكلون ، ويمشون ، يمشون ويدخنون ويحتسون القهوة ويمشون ، يمشون ويتغازلون ويأكلون البوظة ويمشون . هذه الدوامة من البطون والافواه الفاغرة والاجساد الدبقة .. وانا حجر أسمر طويل على مقعد من الخشب ، تتحرك في أعلاه خرزتان تبرقان ، وله امتداد منه عجيب ينتقل بين خشبة أمامه – منضدة، وبين شق في اعلاه ، ينفث بين حين وآخر غمامة زرقاء حارة .

موج الشارع تحت الخرزتين ، وموج البحر الهادر القريب ، في شقين آخرين على طرفي الحجر الاعلى .

كان على خشبة – منضدة قريبة ، مجاورة للحجر ، رأسان منحنيان يتلامس شعرهما من أعلى ، وتتصادم في الاسفل حشرجات ألفاظ أشد حراً من الشارع ، وتبعث باقة من الاقدام تحت الخشبة ، عبثاً آلياً ببعضها . وستة أحجار أخرى أكثر حلكة وسوادا تتحلق وسط السقيفة وقد عقدت الدهشة والبله والاستطلاع أنظارهم على من حولهم ... وسكتت هناك الى الابد .

دبق أصفر . وكل الاشياء هنا ملتصقة . والخادم تحبس رقبته ياقة بيضاء . انه يضن على عرقه ودبقه أن يتبخر منهما شيء خارج بذلته السوداء ، علبة هذه التي حشرت داخلها آلته ، المتحركة جداً المتنقلة بأسرع من رغبات الزبائن ، من حركة الصاعدين والنازلين من السقيفة واليها .

وشرطي أحمر تنتفخ اوداجه وعيناه وكرشه في صفارة ، أصفر من أرنبة أنفه الغارقة بين جبلين من لحم الخدين والشفتين . انه كله في ثغر كقبة على قبر ولي عتيق ، وفي يد تلوح هكذا في الفراغ . وتتحرك علب سوداء لامعة هي السيارات – البشر .

ان لي بين هؤلاء جميعاً في السقيفة ، وفي أرصفة الشارع أمامي وفي السيارات – البشر . وفي كل الشوارع التي أراها ولا أعرفها وعلى كل الارصفة الممتدة الى مالا نهاية ، وفي كل هذا الضجيج والشرطي والصفارة والابنية الصفراء الشاهقة .. ان لي واحداً .. واحداً يعرف كيف يتجاوز كل شيء ليصل اليّ ، واحداً لا تهمه العلب والكرات والاكوام والآلات والدبق ، لكي يهتدي الى سقيفتي هذه . واحد فقط سينبثق عن هذا السديم ، عن هذا المجهول المخيف في وديان الشوارع ، في مستنقعات الانهر الطويلة من البشر الزاحفين ، اذ يقف بهم التيار فجأة ، فيتعفنون بسرعة وتتصاعد منهم روائح التخثر وأنين الجمود . شخص وتتلاشى المدينة بعد ..

وتحرك النواس ايضاً . وكانت دخينة اخرى ، وأنفاس ملتهبة تحرق اعماق هذا الشاخص من الفراغ . لقد تحطم اناء وقته ، ونزف هكذا من بين اصابعه النحيلة الطويلة . وانجرف إثره وعيه الضحل في غيبوبة الصور المفككة . وحاول التطلع . كان من لحظة يحني رأسه الى اسفل ليرى الشارع . الآن ينظر الى اعلى . وفي فوهة شبه مضيئة في اقصى بئره ، جرفه ، غوره ، تتراقص اشباح على شبه نور وجيف . من اعلى ، فوق ، كل شيء يمور ويتحرك ومضاء . وهنا في اقصى الجرف الى اسفل ، في هذه النقطة السوداء الثابتة ، كنظرة جني مخبول ، يجمد التراب والضحولة والصمت والشخوص ..هكذا لا شيء الا النواس يسيطر على فوهة الغور . اما هنا فالركود والتأمل بلا موضوع ، والحركة الجامدة على ذاتها . هنا لا نواس .

اقصى العمق ، واقصى العلو . والنظرة الثابتة ، والتشنج . ثم الدوار يبعد من حوله الحدود والتعينات اولابعاد المستقيمة ، ليرجع السديم يتحكم في كل اشيائه وقد فقدت هويتها ، واصبحت بدون اسماء . عليه هو ، هو الشاخص ، ان يجد لكل حركة وعلبة او انسان حوله وامامه ، معنى واسماً ، وهوية اخرى جديدة .

كذلك هذه الافكار الدابة على سطح جمجمته ؛ لا تعرف كيف تلج رأسه : انها ليست ملكه . هو لم يصنعها . كما انه لم يصنع مخطط هذه الشوارع ، ولم يشرع في اقامة حجر من احجار ابنيته . هو ما كان مرة صاحب هذا المعنى ، هذه الحدود ، والمدينة وجدت من قبله ، قبله بآلاف السنين ، فليس هو منها ، غير مسؤول عنها . ارتباكاتها وتقاطع طرقها ، وتصادم سياراتها ، واصفرار لونها . حجورها ، مواخيرها ، موائد ساستها ، مؤامرات اصحاب العلب ، اصنامها ومعابدها ونواقيسها ومآذنها اشياء على مسافة منه .. تلمسه ، تحتك به ، تبريه ، ولكن لا تلجه ... لا تلجه الآن .. والى الابد ..!

حق انه حجر ؛ وانه في اعلاه له شقوق كثيرة ، حيث يتدور الحجر ويرق قليلاً .. وأنه له استطالة تحمل دخينة ترتفع بين القاعدة والرأس ، هذا النواس للخارج ، ككل ما يحتك به ولا ينفذ اليه .

وبين حين وآخر تأتي استطالة خارجية وتمد تحت خرزتيه ، اوراقاً ملونة ، عليها حروف ضخمة ، و تنزلق على الشق الجاني اصوات ، الفاظ لا معنى لها . تلك اخبارهم وحوادثهم . واما هو ، فانه قابع لا اخبار له ولا حوادث ..

انه يرتبط بالسقيفة ، وبالشارع في الخارج ، وبجوف العالم هذا ، بخيط واحد واه جداً ... قد ينقطع بين لحظة واخرى . واحد سينبثق فوق

المادة الحام العائمة هناك .

وبعد .. اي في مرحلة اخرى يسجلها النواس ، بعد .. لا شيء الا ان يعود فيغيب ثانية في الحام ، في السديم ، في جوف العالم والبشرية .

***

انهم يعملون بعيداً عنه . كل يستطيع ان يحرك لسانه بطلاقة ويرمي بسيل من الالفاظ . واباريق الدهن والزيت ، وخابية الطلاء ، ودن العرق ذي الرائحة الحادة المصقولة في البياض .. وكل الليل الملتحف ببخاره الاسود والجنازة المحترمة .. واعواد المشانق والاعدام بالجملة ، وتجارة الاسلحة .. كل هذا يعمل بدأب ويتسابق في العمل . كيف يستطيعون على هذا في الدبق والعرق .. في المواخير كيف يلتصق الجسدان لينفصلا بعد ساعة .. وكل قد شرب من عرق الآخر وطبع شكله على جلد الآخر .. وعلى الكراسي العالية كيف تلتصق الاليات البدينة ، وتعرق هناك باستمرار ، الى الابد ، حتى يتعفن قش الكرسي . ولكن الرصاص الاسود السريع يلتصق .. هناك في الاراضي البعيدة ، في الصحاري والجبال المنفسحة من جهة على زرقة البحر ، ومن جهة على اصفرار الرمال الصامتة كعقيدة المجهولين من المنتحرين لا تذكرهم الاوراق ذات الحروف الكبرى الملونة الا اعداداً على اعداد .. يلتصق الرصاص في اللحم الحي والقلب النابض ، والانسان العربي المجهول .. القتيل دائماً

يعملون بعيداً عنه .. القاتل والمقتول . السارق والمسروق ، الخائن والقضية . وتباطأت حركة النواس . لقد ماتت دخينة ثانية . وتحركت اصابع العزف الصامت وتناولت دخينة ثالثة وتحرك وناس النواس من جديد ..

انفجرت ضحكة في شقه الايسر . هل يتحرك ؟ هل يعرف الدوران ؟ هل سيعمل شيئاً ؟ وتلتها ضحكة اطول واضخم .. تصر صريراً . يجب ان يلتفت اذن . ولكن كيف ؟ هل هو ملتصق على كرسيه ؟ اذن ماذا يمنعه ؟ انه لو التفت ، هل سيعمل ؟ وماذا سيعمل ؟ هل يكف نواسه ؟ هل ينفذ شيء اليه ؟ هل يقف عن العد ؟ عن الاحصاء ؟ احصاء الاشياء التي تتدحرج تحت .. لماذا لم يكن مهندساً ؟ هل هناك شيء غير المساحات والسطوح والابعاد .. رياضياً ؟ وهل غير الوحدات في مطلق الفراغ ؟

اتضحت ، جانب شقه الايسر ، الفاظ كثيرة مندفعة .. لعلها من تلك ومن ذاك اللذين تفجرا منذ قليل بضحكتين .. واتضح كلام شيئاً فشيئاً ، حديث بصوت عال . على غير عادة الاحجار ذوات الرؤوس المنحنية الهامسة المتلامسة على المناضد في بقية السقيفة . لا بد انهما رأسان متباعدان قليلا .. يتقابلان ، لا يلتقيان .

— نسيتني ... أجل نسيتني طيلة ايام ... لا اعرف غير هذا .

— ماري .. تعلمي ان تري في شيئاً آخر .. شيئاً آخر ... هل تفهمين ؟

— ماذا .. هل ستجعلني قريباً خادمة في الصليب الاحمر ؟

— خففي عنك قليلاً .. لست غريبة إلى هذا الحد عما اريدك ان تفهميه ...

— بل غريبة تماماً ..

هنا محاولة شد . هل ينجح بخلعها مما تلتصق به في ذاتها الدبقة . يجب ان التفت اذن . اريد ان اراها واراه . لم احول نظري مطلقاً عن الشارع . الآن لا بد لي ان اهجر ذاك .. ما تحتي . ادور الى جانبي ... ينبغي ان تكون جميلة ... الى حدود . هو .. ينبغي ان يكون اجمل :

لقد انتظرته اياماً طويلة . عيناها ... لا بد انهما بدون معنى . إنها تتطلع دائماً الى خارج .. وحاجباها بينهما تتأرجح دهشة صارخة مشدودة .. كيف .. سيفرغ الخارج ، سيتجوف عالمها . ستفقده .. هو .

— اضعف الايمان يا ماري ان نجمع التبرعات

— كم هذا مضحك ... جمعتم التبرعات من قبل لفلسطين ، وتجمعون اليوم للغرب ... الا تكف انت الآخر عن هذا الهراء ؟ ..

هذا الحديث لن يبلغ الى اي نتيجة حاسمة . القصة قديمة . ومثل هذا الزيف لا يغطي شيئاً على الاطلاق . انه عندما يشدها الى صدره ويضغط نهديها ، ويثير رعشتها ، ستعرف كيف تتملكه اكثر . وحينئذ لن يبقى منه شيء آخر .. للآخرين البعيدين . السنا نتقن جيداً .. نحن كيف نستعبد ونُستعبد . هناك ايد وارجل تتقدم من سندان الحداد الهرم الذي يصنع حبال القيود الحديدية .. حبال لا نهاية لها .. مثل صفوف الارقاء امام باب دكانه .

خفت الحديث ، وصار همساً ، وتدانى الرأسان .. ولم يبق شيء منهما ... ضاعا في السديمية الحام ، التي تعمر جوف العالم .

لم ار وجه احدهما بعد ، وانتهى كل شيء قبل ان استطيع الدوران .

وامكنني بعد ذلك ان افكر قليلاً . كانت فكرة ضحلة كبقية افكاري .. تعوم من فوق . هذه الفكرة محاولة لصق لفظتين : الفرد — الامة .. عبثاً افكر . فليس هناك فرد ولا امة . والمسألة تبدأ عندما استطيع انا ان اكون — ان اوجد فرداً حقيقياً . ولن يكون هذا الوجود خاماً ، ولا شيئاً من الاشياء ، ولا عن صدفة طائشة . ولا نسخة بين النسخ . لن اكون هذا الحجر ، المنفصل بكل ثقله ، المعزول في زاوية من سقيفة تطل على الشوارع المزدحمة بالنفايات والاشياء والنسخ .

ان الامة ترتفع مني كما يرتفع صباح من فوق ذروة الى ذروة اعلى منها . علي قبل كل شيء ان احطم حجري .

نواسي هذا يتحرك في الفراغ ، وافكاري تنزلق على جبيني انزلاقا مريعاً بدون اثر .

ان لي ان اقف قليلاً ، ان تهدأ يدي ، ان تنطفيء دخينة . لا اريد ان اشعل غيرها . كفى ..

ما الذي اتى بي الى هذه المدينة الساحلية الصاخبة ؟ هي غريبة عني ككل المدن الاخرى . وان كان لي مدينة ولدت فيها ، وترعرعت وسجلت في نفوسها . انا اكره الشوارع المتقاطعة وزواحف الشوارع . ولكني كم زحفت .. وهناك كنت التصق بسآمتي ، كما تلتصق بي كامل اشياء المتمدن . علاقاتي واشيائي وقيمي وصوري .. وشخصيتي .. كل هذا .. هذا الذي صنعته انا بمساعدة مدارس المدينة المختلفة ، تركته ، تخلصت منه ، رميته خلفي . وهأنا .. بدون انا . لاشيء عندي أجتره . ولست لأشحن خلفي شيئاً مني .. هذا انا : عار كالحجر . واود لو ابقى هكذا دون ان ابني لي قالباً جديداً ، دون ان امد يدي مرة اخرى للحداد العتيق وسندانه الاسود المهترىء من كثرة ماهوت على حديده ضربات المطرقة .

ولكن ماذا افعل بهذا الفراغ . ان لي انتظاراً ههنا . بدأته منذ ساعة ونصف . وكانت توقت الزمن يدي بدخينتها : من المنفضة الى شفاهي ، من شفاهي الى المنفضة . وبدأته من القديم ، منذ أن راح خفقان قلبي يوقت لي زماني وحياتي .

أنا انتظار ، ومرهف يستعد لفهم صاعق . أنا نظرة مشدوهة غريبة لا يقبض عليها منظر ، لا تقلصها حدود .

أجل هكذا أنا . وبدأ حجري يتكسر . ولكن ماذا أفعل الان :

انتظار جديد . حجري أثقل مما اعتدت حمله.. لن يتكسر بسهولة. انه كالجبل ، كالمسؤولية. مسؤولية من .. المتعطل ، الشاخص في الفراغ ؟

وعادا الى الحديث . أو بالاحرى عدت الى الاصغاء لهما .

— غداً .. نعم ، نفس الساعة .

كان يجب ان أراهما أيضاً كيف يتحدثان. لابد ان لكل منهما وجهاً أحس بالخوف . اخشى الوجوه الصريحة . اخشاها وقد انعقد عليها شبح تصميم.. قرار ، عاطفة معينة ، فكرة محدودة . ترى كيف يجرؤون . يقول لها : غداً . لاشك انه موعد . كيف يتمدد هكذا من هذه اللحظة الى (نفس الساعة) غداً .. دون أي ضمان ،الا أنه يريد..يريد؟إنه يتصرف كما لو انه حقيقي..حقيقي الى اقصى حد.واضح نير.. كأنه مصباح.. ليس بيده اشتعاله ولا انطفاؤه . ولكنه ما دام يضيء فهو يضيء ..!

هل انا افكر اذن حقاً ؟ هل ارتب القضايا ، واخلص الى نتائج ؟ لابد انني اذن اشعر باليقين . يالها من كلمة ..

هناك الآن موعد صحيح بين شابين .. لقد اتفقا عليه بلهجة سرية جداً ومبطنة. انه موعد ليس كهذا الذي يجمعهما هنا الان .. في هذا المحل العام ، سينتظران.وسيؤلمها الانتظار.وتنفصل كل لحظة، في زمانها ، عن الاخرى بهوة وحشية .. تبتلع صباهما ، وولوعهما الطفل .

هو ، سيقف وراء نافذة غرفته ، سيتسمر هناك ، بدون ربطة عنق . وسيمسح كل هنيهة سيلاً من العرق البارد من على وجهه ورقبته . وسيطبق عليه جو الغرفة الخانق شيئاً فشيئاً . ستضرب الساعة بسوطها على كل جسده. كل هنيهة لها ثقلها وقضيتها وعناؤها .

وهي ... ستتعثر خطواتها ، ويجذبها رعبها أكثر الى حيث النافذة ، واقفاً وراءها هو بقامته المديدة ، إشارة لخلو داره .

ترى ايعرفان حقاً كيف ينتظران، وكيف يألمان؟أيشعران حقاً بقضية المغامرة؟وهل يدركان بأنهما يجازفان بكل شيء؟ هل يمكن لمثل هذا الموعد الناري ، في ساعة خانقة من أصائل الساحل المسمور ، أن يكون جزءاً من حياة يسير الى جانبها دون ان يهزها، حادثة عارضة لا تفرض حداً فاصلاً بين ماض يجب رفضه كله ، وبين مستقبل لا شيء فيه مضمون، تحت اليد؟..

هل يحسان بأن الحب حادث مبدع لا يقبل أي مقياس غريب عنه، حتى ولو كان من حب آخر ؟ حادث لن تكون الحياة معه وبعده إلا فوضى الرغبة ، صداع الحرية ، وماء التضحية والوثبة البطولية ..

هذه أفكار ولا شك ، وأمال يثقل رأسه نحو اليسار ، لعله يجد مرة أخيرة صاحب هذه الافكار . فليس هو صاحبها مطلقاً . ويرى الدميتين الصغيرتين ، أضعف من ان تنبثق منهما قضية .. مشكلة حياة جديدة كلها، وكلها مسؤولية ، خضم من العمل والتأمل والمعاناة ،.لا قبل لصاحبي موعد تافه ان يخوضا به .

هذه الافكار ليست له.إنها تطن داخله ، في جو من الفراغ ذي الصدى الحجري النحاسي الفقير . وليست لهذين المخلوقين ولا شك. إنها إذن للشخص الذي سينبثق عن هذا السديم ، من الدبق والعرق والعلب المتحركة .

لا بد أنه قريب ، بل يجب أن يصل اخيراً ...

ولم لا .. فانه .. شخص وتتلاشى المدينة بعد .

***

كان بعض النور يشق عنه زجاج الباب من الخارج . وكانت أصوات الفندق تخمد بالتدريج . وسدرت الوديان في غيبوبة من الظلام والسلام والخشوع الجبلي الغر .. المخيف . ولم يكن في الغرفة ضوء . ولكن ثمة تنفسان عميقان بطيئان، هما نواس الوقت داخل هذا الكهف الجبلي النائي ، في المصيف المجهول .

تنحنح في مكانه ، بيد أن ذراعه كانت شيئاً خارجياً جداً ليس له عليه أية سيطرة . إنها مخثرة ، بدون لحم وأعصاب ، جامدة تحمل رأساً صغيراً تستند اليه بكل ثقلها . الشعر ، شعر الرأس الملقى على ذراعه ، كثيف طويل جداً ، يتساقط ويموج هنا وهناك ، على صدره العاري ، على يديه، على الوسادة . خصلة قريبة من عنقه ، تتساقى حتى ذقنه ، حتى فمه . وفي ثغرة يتملى طعم الشعر والعرق والتعب الكئيب والسفر البعيد والغاية المتحققة ببلادة طرية .

يتنحنح قليلاً . ولكنه يعجز . إنه يريد ان يقوم بحركة . ولكن بين أن يريد وبين ان يتحرك فعلاً ، فواصل ومسافات طويلة . إن لسانه يطيعه شيئاً ما ، فيمده خارج الشفتين ، ويلعق هناك حول ثغره سائلاً مالحاً .

صدره وجذعه ، فخذاه .. أشياء مستقلة عنه، استطالات . ولا يدري كيف يسيطر عليها . هل هي حقاً له .. وكيف . هناك شيء آخر فوقه قسم من جثمان صغير كبير .. بل صغير. وتنزلق نظراته على خديه الى الرأس الى طرف الجسد الأيمن . ويلمح البياض والنعومة ينزلقان مع نظراته من الذراع الطويلة الرخصة . وبالقرب منها كومة لحم عليها برعم محمر مدور. ثدي صغير . ولكنه ليس ثدياً وحده. بل يعلق بطراوة أوسع منه، بيضاء ايضاً ... تمتد طولاً .. آه لا يستطيع ان يتبين حدودها ، ولا أن يجد لها اسماً . ويحاول ان يعلو برأسه قليلاً ، ليتاح له ان يمد بنظره الى نهاية الطراوة . رأسه هذا ، او حجرة كبيرة منحوتة ، مركبة فوق. حتى هذه اللحظة كانت عيناه ، اطرى شيء لديه ، تدوران في محجريهما . هذا الدوران في محجريهما . هذا الدوران هو الشيء الوحيد الذي يستطيعه ..

ودارتا كذلك الآن ، فانداح السقف والجدار ، والسرير الآخر ، بما عليه من ثياب ملونة . والارض .. وعليها حذاءان . والبياض البارد هذا، جزء من غطاء الفراش ، والبياض الحار هذا المتعرق .. جزء من جـ .. جسد . لا بد أن يكون كذلك. والجدار والسقف مرة أخرى والسرير الثاني .. وهكذا دورة إثر دورة . ولكن الظلمة كثيفة إلا من هذا اللمعان قربه.. فوقه .. حوله . لحم ابيض.

فتح قبضة يده اليمنى ، ، فتسللت به يده المشنجة هذه الى المنضدة المجاورة وجر كأس العرق ثانية .. وتجرع فراغها . اطبق شفتيه . ما زالتا جافتين . وطعم الشعر بينهما جاف . اعاد الكأس . وحرك لسانه . ودفعه ببطء محترس ، فلمس اسنانه الامامية . وحاول ان يلفظ ولكن الشفتين مطبقتان تماماً . كلمتان فقط . عدد حروفها : ستة سبعة . واذا تم له التركيب ، فمن اين له بالصوت .؛هذا الاهتزاز في الحنجرة . ان الفكرة تهبط مخثرة مقدماً من جمجمته الى حنجرته . وهناك لا نبأة.. لا شيء على الاطلاق سوى غضروف جامد .

انها كلمتان . هكذا .. يلفظها :

— فرغ العرق .

جاءت نبرته نحاسية بدون صدى . منذ متى يشرب العرق ؟ ليس هو وحده.لقد التقى بها اخيراً ، وانتهى انتظاره وشخوصه .. هناك على سقيفة (الاوتوماتيك) ببيروت.وبعد بضع ساعات اوغلا في الجبل الشمالي ،وهناك غابا في الصمت والآفاق واللون الازرق ، والشفوف المسحور .

كانت تتأمله طيلة الطريق . وأما هو .. فكان لا يزال يتجمع ببلادة في عدمه . وعندما بدأ يتحسس بذاته قليلاً ، كان الطريق قد انتهى، ولم يعد

ثمة منعطفات . والمناظر كلها سدرت في ظلمة المساء . لقد ضمتها اخيراً حجرة صغيرة ذات سريرين جديدين، وخزانة صغيرة ومرآة رخيصة . ولكن هذه الحجرة كأنها تتجمع على ذاتها ، لتنقذف من نافذة واسعة، الى الشفق والافق واللانهاية ، الملونة بزرقة البحر و صلاة الشمس الغاربة .

كان اول احاسيسه في ذاته الجديدة .. الخوف . تغطيه قشرة جد رقيقة لا تغطي شيئاً غير رعشة في الفراغ ، إنه منذ الصباح ، منذ ذلك الانتظار الطويل لم يبق له ثمة عادة ، فكرة ، عاطفة ، صورة . وأحس بسذاجة لا حد لها امام كل منظر . فليس له قدرة على ان يفهم شيئاً مما حوله. ليس له ماض ليستعين به على إدراك علاقات الحاضر واشيائه . هو منفصل، معزول، خائن .. خائن ، إنه جديد .

كان يرتب اشياءه القليلة في الدولاب ، ثم انتقل الى جانب النافذة ووقف ينظر الى الافق البحري البعيد الارجواني ، وينظر اليها . سريعة الحركة، تتعاطف مع كل قطعة من ثيابها وهي تنقلها من الحقيبة لتعلقها بعناية انثوية في الخزانة : إنها تتصرف كأنها في غرفتها الخاصة. طبيعة رقيقة ، بدون خشية، بدون وحشة . كل لحظة ملكها .

وقد توقفت لهنيهة تتأمل ادوات حلاقته ، كيف وضعها دون نظام على المنضدة امام المرآة . . وشعر انها تحب اشياءه تلك، نفس الحب لأشياء الانسان الذي خلقته انوثتها العنيفة منذ اللحظة الاولى من وعيها العبقري على صباها وموهبها وجمالها . . اجل إنها جميلة كأروع ما تكون امرأة، ترفع من جمالها لدرجة العبقرية . قامة لينة ملتفة على طراوتها، تنساب في ساقين ملتصقتين، وتتجمع في ردفين غنيين ، وتتلاحن في خصر تستنفده أصغر إحاطة من يد رجل قادرة وتبرز في صدر رؤوم حنون . والوجه . . يضيئها بعينين كبيرتين ، مظللتين بحلم ، طفل ابداً .

ولكم حدثته ، واصغى اليها . وكأنه يتعلم عنها لأول مرة كيف يعيش . طفولتها وثابة ، احست بميزتها الخاصة ، فافترقت عن الاطفال وتحكمت بأهاليهم . وكان ابوها بطلها آنذاك . ولكنه عندما باعها الى رجل هرم غني، تخلت عنه، احتقرته، ولم تكن خيبتها بأبيها بأقل من خيبتها بزواجها الشرقي المقيت .

وانتصرت على الزواج بأن تمردت عليه ، ذلك التمرد الذي لم تجرؤ عليه واحدة من الوف ضحاياه . وانطلقت تبحث عن بطلها الحقيقي مرة اخرى وخرت اصنام البطولة واحداً تلو الآخر ، امام بطولتها هي . وشدهها الزيف الهائل الذي يعمر قيم المجتمع السقيم حولها . فانفصلت عنه وداست مقاييسه . وتوالت خيباتها . وكل فشل كان يؤكد لها بطولتها أكثر .

وكان ان التقت به اخيراً : شاب أسمر فارع القامة ، مفلسف الحركات، شاعري التقاطيع . أيكون هذا ما أعجبها به ؟ لقد صدمته اول مرة عندما لم تقف عيناها في حدود هيئته وصورته . كانت عيناها تخترقانه الى ما هو أعمق وأخفى ، وكان بحثهما قاسياً ثابتاً عنيداً . إنها تحاول ، وهو يتكلم ، ان تتابع معانيه في نفسه ووجدانه . لهذا كان يحس انها تخترقه . وعندما انتقلت اخيراً من دور المستمع المتفحص ، في ذلك اللقاء الاول لهما ، الى دور المحاور المناقش ، أدرك أنها لا تقف عند حدود الاعجاب ، بل انها كأنما تطالبه ان يعطي اكثر ، ان يبرز اوضح ما يكون . فهي بحاجة الى الاعجاب كله ، وليس بعضه . انها تميل اليه الآن ، ولكنها تريد ان تهواه، ان تعبده . فليكن رجلها الى الذروة . فليكن إنسانها المفقود .

قالت له وهو يوصلها بيتها بعد انتهاء السهرة: لا أحب جمالك يا نبيل . إنه يمنع المحب من أن يكتشف فيك مواهبك الاخرى، فيبقى هناك اسير جاذبيتك المتعالية . لقد انصت الى كلامك اللاهب العميق حول قوميتنا العربية . وادركت ان ما اقترحته علينا تحت اسم (برنامج لتحقيق الاهداف القومية)، يجب ألا يقف حيث اوقفته أنت .. ما بالك يا نبيل ، هل تدعو الآخرين لتحقيق برنامجك، وما هو دورك انت . إن بطولة العروبة في أفرادها ، فلماذا لا تضع نفسك موضع البطل . . البطل الاول؟ إن لي شاباً كالصبح إشراقاً يعمل الآن في المغرب العربي . لقد ذهب الى هناك لانه لا يريد ان يبقى في الخطوط الورائية ، يهلل للمنتصرين ويبكي للمنتصرين . .

وحملقت به ، ثم قذفت كلامها كالحمم بوجهه : يجب ان تعطي كل مالديك لفكرتك . . ابداً منذ الآن . إنك بطل وهذا ماتتطلبه فكرتك منك . . »

هل كان حقاً أيعد نفسه لان يكون البطل ؟ كان يشعر بنفسه دائماً انه متفوق. إن له افكاراً وعواطف وإبداعات وحوادث تجعل من شبابه ما يحفل بأعمق حياة وأغناها . وهو يعلم ان اروع إبداع يستهويه الآن، ليس الفن ولا الفكر ، بل الفن والفكر من أجل . . بلى فليقلها ، من اجل نفسه . ولكن اي نفس . هذه النفس عندما تحيا على مستوى القدر، قدر التاريخ، القدر نفسه الذي يصنع تاريخ الامة . هذه الفكرة الجاليـة كان يحس انه ليس دونها على الاطلاق . ولكن مشكلته تقوم في هذا السؤال: هل يمكنه ان يلتزمها إلى الابد ؟ وماذا يعني التزامها . . أن يبدأ من حياته اليوميـة فيتجاوزها . يحطم قيم مجتمعه . . مفاهيم الاستقرار والجمود . . أن يتحرر من كل ضيق محدود . من مقولات تفكيره المصطنع . ان ينقلب من غدير يمتد على سهل ضحل الى دوامة في خضم تلتهم سطحها دائماً وتبتلعه الى اعماقها . حياة الصاعقة . . وبدأها ضد نفسه، ضد اطره، ضد اصدقائه، ضد العالم والله .

وكان لقاؤهما الثاني ببيروت، وهناك صعقتها هيئته، إنه كالاعجوبة الساقطة من كوكب آخر ، لا يفهم ، لا يعرف، لا يمكن التفاهم معه ، لانه لم تعد لديه لغة عامة، ولا كلمات محدودة، ولا لهجة معروفة . إنه الشاخص من الفراغ، عن صمت رهيب مطلق ضمن حدود ذاته . . ترى ماذا وجد . . مـاذا يفعل . . هناك وحيداً مع ذاته . . ومع فراغه ؟

مضى اسبوع في المنأى الجبلي المنعزل ، في الصمت ، في الذرى وتلقاء مطلق الآفاق الغامضة . استمع اليها ، الى كل القصص ، الى قصتها ومعانيها ومثلها . وقصص صديقاتها . وعرف احتقارها وترديهـا وتساميها . فمن هي هذه المرأة ، المتأججة بخدين مارجين ، وباشتعال اشقر في اطـول شعر واكثفه ، وبالكلام السريع المتمرد القاذف بقلب صاحبته مع كل نـبرة وحرف وصوت . هذه التي تبدأ من ذاتها ابدا لتقيم العالم . هل تعلمه اكثر من ان يكون ضحية بسيطة : فكره وعمله لهذا الكائن الانثوي الكبير: الامة .

ظل قابعاً بصمته، وعندما ادرك انه لا عرق ، بعد . وأن الصبح لم يبق له إلا ساعة واحدة ، احس ان شفتيه يطفر بينهما كلام سريع طري؛ لقد تحطم حجره . . ولمسها الى جانبه . ترى كم هو رائع ان يكون الانسان لحم حار واعصاب . . قضية دم . وتمتم : لا اني جدير . . بما تريد مني ان اكون .

هل هو على ثقة تماماً ؟ سينظر الى عينيها عندما يشرق الصباح ، وعندها سيتقرر الوداع . . لقد انتهت حياتهما معاً . وقبل ان يفترقا عند الصباح، صباح الجبال والقمم الملتفة بزرقتها العذراء، حدثته بما كان يؤمن به من غير تأكيد الحديث .

— إن معبدك قد اقيم ، ولم يبق إلا ان تقبع به ، ثق ان قداستك هي ان تعب أعلى ما في الحياة وانت تتخضب في رواسبها . . لن نبكي لهذا الفراق أنا لم اردك زوجاً لي قط ، فلست لابغي ان اعيش معك الحياة اليوميـة الرتيبة . . تركت ذلك لغيري . . ولكني سألتقي معك دائمـاً في مثل هذا المنأى . . بين الذرى ، لا تكف عن التصعيـد . . واعلم ان الامة امرأة ايضاً . . مثلها ولدتك تريد ان تزوجك من قدرها . . نعم . ! ستكون قصتي غريبة ، وسيحسب بعض السذج انهـا أسطورة . ولكن في القرن العشرين ، عصر العلم والذرة تحدث المعجزة . ولا شيء مستحيل في امة الانبياء .

كان طريق العودة طويلاً بطيئاً . ولكن زال تحجره وصعـد فوق تجربة الآلية ، إنه يحاول ان يعيش انساناً على مستوى التاريخ . وهنـا لم يعد من ضرورة لان يشعل سيجارة ويتحرك نواس في فراغه . انه بدون زمان . . وكان بوذا يشخص من معبد الصمت الى الفراغ . ولكن في هذه المرة كانت الحكمة أرضية .

دمشق — مطاع صفدي